

# من تاريخ الطاعون إلى عقليات الطاعون<sup>1</sup>

محمد أبرهموش\*



مركز دراسات الوحدة العربية



اتّسمت بعض النّماذج من الكتابة التاريخيّة المغاربيّة في العقود الأخيرة، بمحاولات وتحوّلات نظرية ومعرفية، مكنتها من تجاوز المقاربة الأحادية لإشكاليات المرّكبة ذات طبيعة سوسيو-تاريخية، بفضل الانفتاح على الإسطوغرافيات العالمية والتشوف إلى تجديد عملية كتابة التاريخ. غير أنّها لم تُؤثر كثيرا في توجّهات المتخصّصين والمهتمّين بالمعرفة التاريخية، باستثناء أبحاث ودراسات، تصبو إلى تكسير أغلال التاريخ الحديث-الوقائعي وتجاوز أصنام المؤرخ<sup>2</sup>.

في هذا الإطار، يندرج كتاب المؤرخ التونسي حسين بوجرة<sup>3</sup>: الطاعون وبدع الطاعون، الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير (1350-1800)، الصادر سنة 2011، عن "مركز

\* باحث في التاريخ الاجتماعي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية-القنيطرة.

1 - يتعلق الأمر بقراءة في كتاب: حسين بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون، الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير (1350-1800)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011 م.

2- ثلاثة أصنام حسب فرنسوا سيمييان. وهي: السياسي، الفردي، التسلسل التاريخي. راجع: فرنسوا دوس، التاريخ المفتت. من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009 م، ص. 49.

3- أستاذ محاضر في التاريخ الحديث، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في سوسة-تونس. وهو من بين المؤرخين التونسيين المهتمين بأوراش التاريخ الاجتماعي والثقافي.

دراسات الوحدة العربية". وهو في الأصل أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، نُوقشت عام 2005 بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية في تونس، تحت إشراف الأستاذ محمد الهادي الشريف.

يتكون هذا المؤلف من متن بلغ 751 صفحة من الحجم المتوسط تتوزعها سبعة فصول مع خلاصة الكتاب وتقديم ثم خاتمة عامة بمثابة فصل ثامن، نظرا لاستنتاجاتها التوليفية المكثفة والمطوّلة. لقد جاء الكتاب في صيغة ثلاثة أقسام، على النحو الآتي:

- القسم الأول: في المقاربات النظرية والقراءات القديمة والجديدة للموتان، وفي الديمغرافيا التاريخية الكمية والموتان.

- القسم الثاني: أدبيات الطواعين، والتحرّز من الوباء في بلاد المغرب، أو إنتاجات الفقهاء والأطباء النظرية بين مقارنة المتحفظين ومقاربة الصابرين.

- القسم الثالث: العدوى وبدعة (?) التحرّز من الطاعون بين النص الديني والفعل السياسي والواقع التلقائي.

## أولاً: بين الديمغرافيا التاريخية وتاريخ العقليات

يُمكن اعتبار هذا الكتاب بمثابة مساهمة جادة في مسار الدّراسات والأبحاث السّابقة، التي اهتمت بالأزمات الديمغرافية في المجالات المغربية. فإذا كان المؤرخان التريكي وروزنبرجي (Rosenberger) قد درسا القرنين السادس عشر والسابع عشر<sup>1</sup>، فقد اهتم البزاز في أطروحته بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر<sup>2</sup>، في حين اعتمد بوجرة على «طريقة القهقري»<sup>3</sup>، أو على مقارنة استرجاعية، لدراسة الأزمات البيولوجية وتاريخ الطاعون وذهنياته في المغرب «ما قبل الاستعمار»<sup>4</sup>، في إطار الزمن الطويل. انطلاقا من بنيات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى بنيات القرن الرابع عشر.

1- Bernard ROSENBERGER et Hamid TRIKI, «Famines et épidémies au Maroc XVI<sup>e</sup> et XVII<sup>e</sup> siècles», *Hespéris-Tamuda*, 1973 et 1974 (suite).

2- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992.

3- بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون، م س، ص. 136.

4- انطلق بعض الباحثين في العلوم الاجتماعية من مفهوم "ما قبل الاستعمار"، كصيغة تحقيقية إجرائية جديدة لتتبع بنيات المغرب العتيق ما بين القرن التاسع عشر وما يسمى "العصر الوسيط". يمكن العودة إلى: عبد الأحد السبتي، الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توفال، الدار البيضاء، 2009، ص. 260؛ محمد حبيدة، يؤس التاريخ مراجعات ومقاربات، دار الأمان، الرباط، 2015، ص. 19-29.

تناول المؤلف في القسم الأول من كتابه، «المقاربات النظرية والقراءات القديمة والجديدة للموتان»، محاولاً تتبع ظروف نشأة وتطور الديمغرافيا التاريخية خلال فترة ما بين الحربين العالميتين. فبّنه إلى ضرورة التمييز بين الديمغرافيا المعاصرة وتاريخ السكان ثمّ الديمغرافيا التاريخية، فإذا كانت الديمغرافيا المعاصرة تهتم بدراسة هياكل المجموعات السكانية عن طريق هرم عمري وجنسي ومهني، حسب المناطق ونسب الولادات والوفيات، فإن تاريخ السكان يقارب نفس الهياكل في الماضي. أمّا الديمغرافيا التاريخية فتتميز بخصوصية مادتها المصدرية المتمثلة في الأرشيفات الجبائية والخورية<sup>1</sup>، وباعتمادها على الأمد الطويل.

تجدر الإشارة، إلى أنّ الأبحاث والدراسات في الديمغرافيا التاريخية عرفت تطورات مهمّة مع الجيل الثالث من الحوليات، إذ تمّ توجيهها نحو المقاربات الكيفية والنوعيّة، بعد بزوغ عدة تساؤلات تاريخية وأنتربولوجية، أثارها السلوكيات والعقليات الفردية والجماعية<sup>2</sup>. فانتقلت الديمغرافيا التاريخية «من التاريخ الكمي إلى التاريخ الكيفي أو النوعي، وانتقلت من عمليات الجمع والطرح وتحديد النسب المثوية إلى عملية إنجاز المعادلات وصوغ النماذج، أي من إطار وصفي إلى حد ما، إلى إطار النظم والمفاهيم»<sup>3</sup>.

إذا كانت الديمغرافيا التاريخية بالمغرب قد عرفت بعض التراكمات منذ دراسة الثنائي روزنبرجي والتركي، «فإن المسألة مازالت تنحصر في إطار الديمغرافيا التاريخية الكمية»<sup>4</sup>، رغم التجارب والأوراش التي دشتتها «مجموعة البحث في الديمغرافيا التاريخية»<sup>5</sup>، عبر مجلّتها المتخصصة كنانيش. وأمام هذا الواقع، وجّه بوجرة بحثه نحو المقاربة الكيفية، لأنّ الديمغرافيا التاريخية «ليست بالضرورة كمية فحسب، بل هي أيضاً، إن لم تكن أساساً، نوعية وتنتمي تحليلاً إلى النوع الطولي والمدى الطويل»<sup>6</sup>. وهو ما مكّنه من تجاوز مأزق وأزمة الرقم، مادامت النصوص التقليدية المغربية لم تهتم بتسجيل المعطيات العددية والكمية.

ركّز الكاتب في القسم الثاني على «أدبيات الطواعين، والتحرّز من الوباء في بلاد المغرب»، من خلال دراسته لمختلف الانتاجات الفكرية الفقهية والطبية، ذات الصلة بالسلوكيات والتمثّلات والمواقف من الطاعون. وهي تراث فقهي وطبي متنوع، يعبر عن «بعدين اثنين: البعد الصراعي التناقضي القائم على

**1-** وثائق ديمغرافية مهمة على شكل سجلات الحالة المدنية، تتضمن تواريخ وأماكن الازدياد والزواج والوفاة. انظر: محمد حبيدة، «الديمغرافيا التاريخية من الإجرائية الكمية إلى المقاربة الكيفية»، كنانيش، ع 1، 1999 م، ص. 11.

**2-** جاك لوغوف (إشراف)، التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007 م، ص. 287.

**3-** بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون، م س، ص. 63.

**4-** نفسه، ص. 16.

**5-** بخصوص ظروف تأسيس هذه المجموعة وأهدافها. انظر: «نص القانون المنظم لمجموعة البحث في الديمغرافيا التاريخية»، مجلة أمل، ع 7، 1996 م، ص. 131-133. وقد أصدرت تلك المجموعة أربعة أعداد من مجلّتها "كنانيش"، المهتمة بالديمغرافيا التاريخية، لكنها توقفت عن الصدور منذ سنة 2002.

**6-** بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون، م س، ص. 13.

مبدأ نسف الطرف المقابل، والبعد التوفيقي الهادف إلى الجمع بين المقاربتين، المقاربة الدينية والمقاربة الطبية»<sup>1</sup>. فاستخدم في تشخيصه للحراك الاجتماعي ببلاد المغرب مفاهيم الفاعلين التاريخيين، «وعلى رأسها مفهوم البدعة، الذي كان بمثابة المفهوم المركزي للجدل المتعلق بقضايا التعامل مع الطاعون؛ فقد كان دائم الحضور في جميع الرسائل والمصنفات الفقهية، وكان مفهوما مشحونا بالأبعاد التاريخية»<sup>2</sup>.

في نفس السياق، يرى الأستاذ بوجرة أنّ ذلك الصّراع ولّد مقاربتين: مقارنة الصّابرين المستسلمين للقضاء الإلهي، الذي لا مفرّ منه، ومقاربة المتحفّظين المحتريزين من طعنات الوباء. مقدما مجموعة من الأمثلة من القرن التاسع عشر إلى القرن الرابع عشر، من أدبيات "الكرتينة" إلى أدبيات الطواعين، في إطار مقارنته الإسترجاعية الطويلة الأمد، كالسّجال الفكري الذي كان قائما بين التونسيين بيزم الثاني ومحمد المناعي حول الحجر الصحي، فالأول يقول بضرورة التحفظ من الوباء، بينما الثاني يرفض قضية العدوى. فسجّل اختلافا بينهما في عملية التنظير والافتاء، بفعل اختلاف انتمائهم المذهبي والفكري. في المقابل رغم تعدّد الاجتهادات بالمغرب الأقصى فقد سيطرت المواقف الفقهية الراضية لقضية العدوى<sup>3</sup>، والتي تفصح عنها فتوى الناصري بصورة تركيبية وتوليفية في «حكم الكرتينة»<sup>4</sup>.

ويشير البزاز إلى انشطار مواقف فقهاء المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لاجتاهين: الأول يقرّ بضرورة الوقاية والاحتراز من الطاعون، أما الثاني فمعارض للتحفظ ويناهض حقيقة العدوى. هذا الأخير الذي تحوّل «إلى سلاح فكري وأداة تبرير لرفض التنظيمات الصحية الوافدة»<sup>5</sup>.

توقّف مؤلف الكتاب في القسم الثالث، عند إشكالية «العدوى وبدعة التّحرّز من الطّاعون بين النّص الدّيني والفعل السياسي والواقع التلقائي». فقد تتبع معظم الأحاديث المقررة بالعدوى والرافضة لها، وما أثارته تلك القضايا من تأويلات وتخرّيجات فقهية، قبل أن ينتقل إلى البحث والكشف عن أوجه التداخل بين المقاربتين الطبيّة والفقهية، فكان الأطباء يبحثون عمّا يبرّر موقفهم انطلاقا من النصوص الدينية، إذ كانت سلطة الدين تؤطر ذهنيات وعقليات المجتمع، ممّا هيأه لتقبل مختلف العلاجات للتخفيف من أعراض الوباء الأسود، ولو نفسيا. فتمّ اللّجوء إلى بركة الأولياء والشيوخ مع ترديد الأدعية واستعمال الوصفات السحرية للتداوي من بعض الأمراض والأوبئة.

1- نفسه، ص. 32.

2- نفسه، ص. 46.

3- نفسه، ص. 215.

4- أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 5، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997 م، ص. 183-185.

5- البزاز، ن م، ص. 394-408.

في حين خصّص الفصل الأخير، للمقارنة بين موقف الدولة الحديثة من الطاعون بأوروبا وطرق تعامل المخزن مع الأزمات الديمغرافية، تلك الطرق التي تميّزت بالمواجهة واللامواجهة حسب السياقات والظروف التاريخية. وبالتالي، توصل إلى خلاصات عامة تؤكد على «ضرورة الإقرار بالتمييز بين فترتين في تعامل الدول المغاربية مع الطاعون»<sup>1</sup>، حيث تميزت الأولى بسيطرة السياسة الصحية الرسمية الشخصية لحماية كوادر جهاز المخزن، بينما عُرفت الثانية بسياسة صحية منفتحة على الجميع، تهدف إلى حماية سكان الحواضر ومدن الموانئ وبعض الأهالي.

يطمح الباحث بوجرة إلى استحضار الهياكل الديمغرافية في أعقاب مناقشة ومراجعة أسس قيام الدول وأفولها. ويستمد هذا التصور جذوره المرجعية من دراسة الباحثين روزنبرجي والتركي، حين ربطا وفسّرا بعض المشاريع والانهيارات السياسية على ضوء الأزمات الديمغرافية، إذ لا يمكن فهم تعاقب أنظمة الحكم ومختلف التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بعيدا عن الواقع الديمغرافي. لقد ساهم الموت الجماعي نتيجة أزمات الطاعون أو المجاعة أو الحرب وغيرها، في توفير التربة الخصبة لمشروع السعديين، عندما كانت البلاد منهكة بسلسلة من الكوارث الديمغرافية الجارفة. ومع بداية القرن السابع عشر أدت نفس العوامل إلى ضعف دولتهم خلال "أزمة الثلاثين سنة"، التي تزامنت مع وفاة أحمد المنصور الذهبي عام 1603، مما فسح المجال أمام العلويين لتحقيق هدفهم السياسي. لكن رغم هذا، لا يمكن الارتكان إلى المعطى الديمغرافي بشكل مطلق ونفي العوامل الأخرى، المتمثلة في بطء وعتاقة مختلف البنيات ببلاد المغرب قبل الاستعمار.

## ثانياً: مقارنة تاريخية مُركبة

وظّف الباحث منهجا مركبا يجمع بين الديمغرافيا التاريخية والأنثروبولوجيا التاريخية والمعارف الطبية لكشف الحراك الاجتماعي والسياسي والثقافي والطبي في بلاد المغرب. إنه تصور منهجي يتطلع إلى الانتقال من «دراسة الطاعون والموت، إلى دراسة الهياكل الذهنية والعقليات»<sup>2</sup>، موظفا المنهج المقارن بين البلدان المغاربية تارةً، وبينها وبين المجالات الشرقية والأوروبية تارةً أخرى. فقد استلهم مرجعية تاريخ العروي<sup>3</sup> في

1- بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون، م س، ص. 641.

2- بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون، م س، ص. 16.

3- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، 3 ج، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، 1994 م.

مقارنته الأفقية لهذه المجالات، بينما استحضّر أسس ومنهجية متوسط بروديل (Fernand Braudel)<sup>1</sup> في مقارنته العمودية، قصد الخروج من إطار التاريخ الإقليمي الضيق والانفتاح على العوالم الجغرافية الأخرى.

وكما هو معلوم، يُسهم التاريخ المقارن في تطور الكتابة التاريخية عبر طرحه لإشكاليات منهجية وقضايا معرفية عميقة. وفي هذا الصدد، يشير الكاتب إلى أن هدفه من توظيف المنهج المقارن يتمثل في محاولة إثراء الكتابة التاريخية التونسية عن طريق الانفتاح على أغلب المجالات الموازية: البلدان المغربية والعربية ثم العوالم الغربية. ونظرا لصعوبة إنجاز دراسة مقارنة شاملة في هذا المجال، فقد دُلّ تلك الصعوبات بتركيزه أكثر على التاريخ التونسي.

يهدف إغناء مصادره التاريخية وتجاوز مسألة الانغلاق وعدم التنسيق بين الدراسات الطبية والتاريخية، وظّف المؤرخ التونسي مادّة مصدرية ومرجعية متنوعة تُلامس موضوع الأوبئة والأزمات الديمغرافية، مما تطلب منه التنقيب والجمع والقراءة ثم التحليل والتفسير والتوليف. إنه همّ إستراتيجي يسعى إلى المساهمة في تأسيس وظهور «تخصص أكاديمي قائم على أساس تكوين طبي وتاريخي مشترك»<sup>2</sup>. وقد خاض المؤرخ المغربي بوجمة رويان تجربة مع هذا المقترح النظري والمعرفي في أطروحته حول الطّب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب<sup>3</sup>.

ينطلق المؤرخ التونسي في عمليتي تفكيك وتركيب عناصر كتابه مما حققته الكتابة التاريخية الأوروبية من تراكمات معرفية تمّ ميدان الطاعون والأوبئة، إلى المحاولات المغربية في موضوع الأزمات الديمغرافية. ومن المصادر التاريخية إلى الدراسات والأبحاث السوسيو-تاريخية، ومن القرنين التاسع عشر والثامن عشر إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مروراً بالقرنين السادس عشر والسابع عشر، على شكل هندسة زمنية وإشكالية تتطلب رؤية عميقة وترسّانة نظرية منفتحة على جميع المشارب المعرفية، وعلى ملف بيليوغرافي ضخم ينهل من المصادر المباشرة وغير المباشرة، كالنوازل الفقهية وكتب المناقب والتراجم وغيرها من المصنّفات التاريخية. إضافة إلى أبحاث ودراسات بأفلام مغربية وأجنبية ذات الصلة بواقع الموت الجماعي وحساسياته والموقف منه.

لقد اتخذ بوجمة مفهوم الطاعون -على حد قراءتنا- كواقعة اجتماعية كلية<sup>4</sup>، تتمفصل وتتقاطع عندها المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية. فهو خيطٌ ناظمٌ لقضايا تاريخية اجتماعية

1 - Fernand BRAUDEL, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, A. Colin, Paris, 1949.

2- بوجمة، الطاعون وبدع الطاعون، م س، ص. 604.

3- بوجمة رويان، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، الرباط، الرباط-نيت، 2013 م.

4- مفهوم أبداعه عالم الاجتماع مارسيل موس، ويهدف من خلاله تناول الظواهر الاجتماعية من مختلف جوانبها وعبر تفصّلها العديدة. راجع:

وبولوجية مختلفة، حيث إنّ الاهتمام بدراسة تاريخ الأمراض والأوبئة والطب، يساهم «في كتابة تاريخ المجتمعات الإنسانية، وتاريخ صمودها في وجه أعتى عامل بيولوجي، وهو المرض والموت مرضاً»<sup>1</sup>.

قارب الكاتب ظاهرة الموت الجماعي أو وفيات الأزمات<sup>2</sup> بتونس والمغرب خلال حقبة ما قبل الاستعمار. مركزاً في مظان دراسته على أزمات وباء الطاعون، ليس فقط من الجانب الديمغرافي التاريخي، بل باعتبارها قضايا أثارت سجالات فكرية وخلافات نظرية فقهية وطبية، حين تحولت الوفيات الجماعية من ظاهرة عامة في العصور الوسطى إلى ظاهرة طاعونية مع منتصف القرن الرابع عشر. إنه إشكال عميق يتطلب منهجياً، الانتقال من ديمغرافيا الطاعون إلى بدع الطاعون، مروراً بسلوكات الطاعون، ومن واقع الموت الجماعي إلى عقليات الموت الجماعي، مروراً بالسلوكات والطقوس الجماعية، قصد إبراز مستويات الثابت والمتغيّر في تاريخ الموت الأسود.

ويستمد هذا المنهج مرجعيته الإستمولوجية من الكتابة التاريخية الحولياتية لاسيما مع منعطف الجيل الثالث من الحوليات، جيل الأنثروبولوجيا التاريخية في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. كما يتضح ذلك مثلاً في مشروع ومقاربة "ميشيل فوفيل" (Michel Vovelle) للموت وطقوسه وتمثالاته، عندما انطلق من الواقع الديمغرافي لرصد الذهنيات الجماعية وأشكال الخطاب مُروراً بشبكة الطقوس والعادات الجنائزية<sup>3</sup>. ومن الشّروط السّوسيو-ديمغرافية إلى ردود الأفعال الجماعية والخطابات حول الموت<sup>4</sup>. غير أنّ بوجرة لم يتوقّف كثيراً عند عقليات الموت الجماعي، بقدر ما اشتغل على الانتاجات الفقهية والفكرية التي ولّدها الطاعون، بُغية تشخيص ورصد ملامح المواقف الفكرية والحراك الاجتماعي بالمغرب ما قبل الاستعمار.

### ثالثاً: في مُراجعة التّحقيب التّاريخي

---

-Marcel MAUSS, «Essai sur le don. Forme et raison de l'échange dans les sociétés archaïques», In: **L'Année Sociologique**, seconde série, 1923-1924.

ترجم الأنثروبولوجي التونسي محمد الحاج سالم هذا المقال، وأصدره في صيغة كتاب، للمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى: مارسيل موس، مقالة في الهبة، أشكال التبادل في المجتمعات الأرخية وأسبابه، ترجمة محمد الحاج سالم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2014 م.

1- بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون، م س، ص. 604.

2- أي مختلف الكوارث الديمغرافية التي تفضي إلى تزايد عدد الوفيات بشكل غير معهود، كالجذاع والأوبئة والحروب... راجع: بلقاسم الطباي، الموت في مصر والشام (1250-1517) في العهد المملوكي، ج 1، الدار التونسية للكتاب، تونس، 2014 م، ص. 22.

3 -Michel VOVELLE, «Sur la mort», In: **Idéologies et Mentalités**, La Découverte, Paris, 1985, pp. 103-105.

4- محمد حبيدة، كتابة التاريخ قراءات وتأويلات، أبي رفاق للطباعة والنشر، الرباط، 2013 م، ص. 55.

اهتم المؤرخ بوجرة في هذا الكتاب بالأزمات البيولوجية وبتاريخ الطاعون وذهنياته في المغرب، على ضوء مقارنة استراتيجية تنطلق من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وصولاً إلى القرن الرابع عشر. وقد يبدو هذا الأمد الزمني طويل جداً، لكن طبيعة الموضوع تقتضي تمطيط الزمن التاريخي، وجعله أكثر بطئاً وإنسيابية، بعيداً عن التقطيع الكرونولوجي الصّارم المعتمد في التحقيب التقليدي.

وبما أنّ أطروحته تندرج ضمن التاريخ الاجتماعي والثقافي، فقد أثار إشكالية مراجعة التحقيب التاريخي المغربي «المتداول والقاضي بعدم تجاوز القرن السادس عشر باتجاه الخلف، إذا ما أردنا البقاء ضمن فضاء العصور الحديثة»<sup>1</sup>. فاقترح تحقياً جديداً ينظر إلى الطاعون الجارف كلحظة مفصلية لظهور ما يسمى العصور الحديثة، على اعتبار أنّ المدونات التاريخية-الفقهية لم تتجاوز ما تمت كتابته إبان فوجع الموت الأسود. إضافة إلى أنّ أساليب التعامل مع الطاعون قبل الاستعمار «لم تكن إلا بمثابة استمرار وتواصل مع ما طبق خلال منتصف القرن الرابع عشر»، إلى حدود نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، عندما شكل وباء الكوليرا وريثاً شرعياً لوباء الطاعون الذي أخذ في التراجع والتقهقر. ولكون فترة ما قبل الاستعمار كانت تتميز، كذلك، «بخضوع السياسة الصحية لبلدان المغرب والمشرق للحراك الداخلي لهذه المجتمعات»<sup>2</sup>.

من جهة أخرى، أثارت إشكالية دخول البلدان المغربية إلى فضاء الأزمنة الحديثة مع القرن السادس عشر، سجلات معرفية بين مختلف الباحثين في العلوم الاجتماعية والإنسانية، في إطار عملية مراجعة التحقيب التاريخي السائد، مما أفضى إلى ضرورة التفكير في خلخلة التقطيع الزمني التقليدي، ثم البحث عن البديل، اعتماداً على البنيات التاريخية بدل الأحداث السياسية. فهل يمكن القول مع المؤرخ بوجرة، أن بلاد المغرب ولجت العصور الحديثة في أعقاب الطاعون الأسود الجارف؟ مع العلم أن بنياتها اتسمت بالجمود الفكري والتوجهات المتأفيريكية الصرفة منذ منتصف القرن الرابع عشر<sup>3</sup>، فلم تتجاوز سمات القرون الوسطى، وظلّت وقيةً لنسقتها قبل التوسعات الامبريالية خلال القرن التاسع عشر، بحيث إذا كانت الأزمنة الحديثة تستلزم شروطاً عديدة أهمها توظيف التقنيات والوسائل الحديثة في مختلف مظاهر الحياة، فإن المغرب لم يعرف منذ وُصول الإسلام حتى الرّجة الاستعمارية الحديثة، سوى «عصوراً وسطى ممتدة»، لاسيما على مستوى بنياته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. إن الأمر يتعلق بـ«عصرين: عصر وسيط مبكر، يمثل

1- بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون، م س، ص. 36.

2- نفسه، ص. 38.

3- البزاز، م س، ص. 394.



العصر الوسيط الكلاسيكي الذي يشغل حوله المؤرخون الوسيطون، وعصر وسيط متأخر يوافق فترة ما قبل الاستعمار»<sup>1</sup>.

وبصدد مراجعة التحقيب التقليدي، قسم الكاتب تلك العصور الحديثة حسب تصوّر وتمثّل المعاصرين للطواعين إلى حقتين زمنيتين:

- حقبة أولى ما بين القرن الرابع عشر ونهاية القرن الخامس عشر، تميزت بالإقرار بالعدوى وضرورة مواجهة الطاعون بواسطة وسائل احترازية طبية، خاصة مع كتابات الأندلسيين ابن خاتمة وابن الخطيب والمغاربة ابن هيدور وابن عرفة.

- حقبة ثانية بدأت مع القرن السادس عشر واستمرت حتى بداية القرن التاسع عشر، عرفت بالجمع بين المقاربتين: العلمية الطبية من جهة والدينية المتشددة من جهة ثانية. بين النظر إلى الطاعون كوباء ناتج عن فساد الهواء وتحرك الأجرام الفلكية، وتصوره كإرادة إلهية وقدر لا مفر منه !

عموما، حاول صاحب الكتاب أن يتفاعل وينتقد بعض النظريات والدراسات، التي صوّرت موقف المغاربة من الأوبئة في مشهد سكوني جامد، وغيّبت ذلك الجدل أو الحراك الذي كان قائما بين الفقهاء والنخب السياسيّة والفكريّة حول التحفّظ أو عدم التحرّز من الوباء. لقد تمّ تأويل ذلك بطريقة «من شأنها أن توحى بأن السّاحة الفقيهية والفكرية كانت دوما، منذ منتصف القرن الرابع عشر وصولا إلى تاريخ انتصاب الاستعمار الفرنسي، على غاية من الجمود والعناقة»<sup>2</sup>، بل حتّى على المستوى الواقعي-العملي والتلقائي-الغريزي، فقد كان الفرار من الوباء مع تجنب المصابين به، وعدم الإقبال على المناطق الموبوءة أو المطعونة، سلوكات ومواقف أخذت بما مختلف الفئات الاجتماعية، خوفا من وحشية وهول الموت الأسود الذي يفتك بضحاياه في وقت وجيز، حتى تعجّ بهم المنازل والمؤسسات والأزقة ثم المقابر، وتنهار معالم الحضارة والعمران بصورة مرعبة. وصفها ابن خلدون بقوله: «الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحامها»<sup>3</sup>.

في المحصّلة، تشكل أطروحة المؤرخ التونسي حول الطاعون وبدع الطاعون، لبنة أساسية في مسار أورش التاريخ الاجتماعي والثقافي المقارن، التي تبلور إشكاليات وآفاق واعدة أمام الباحثين المهتمين بالمعرفة التاريخية وبالعلوم الإنسانيّة، ما دامت المناهج والمصادر التي استخدمها في توضيب سلسلة أقسام كتابه تتسم بالتنوع والغنى النظري والمعرفي. وهو مبحث تاريخي-اجتماعي راكم فيه العديد من الدراسات

1- للمزيد من التفاصيل حول شبكة مفهوم العصور الوسطى الممتدة. راجع: حبيدة، بؤس التاريخ، م س، ص. 30-31.

2- بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون، م س، ص. 34.

3- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشداوي، خزانة ابن خلدون، الدار البيضاء، 2005 م، ص. 46.

والأبحاث الهامة جدا<sup>1</sup>. فقد استطاع الإمساك ببعض ملامح الجدل الاجتماعي-الديني بتونس والمغرب في حقبة ما قبل الاستعمار.

---

**1-** نذكر منها على سبيل المثال:

-«ثنائية الفقه والطب في تمثلات التونسيين للطاعون خلال القرن الثامن عشر»، ضمن: **المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغرب**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2011 م.

-«مفهوم الأزمة الديمغرافية في المصادر العربية»، ضمن: **الأزمات في تاريخ المغرب**، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2011 م.

-«La peste et les hérésies de la peste», In: **AL-Mustaqbal al-Arabi**, N° 383, 2011.

-«Fiqh, médecine et makhzen face à la peste: Ou la pénible naissance d'une administration publique de santé en Tunisie à l'époque moderne», In: **Les Savoirs de l'administration: Histoire et société au Maghreb du XVI<sup>e</sup> au XX<sup>e</sup> siècle**, éditions OKADH, Casablanca, 2015.